خادم البيعة

—

للقصص الروسى حرمته بين الآداب العالمية الآن، وأبطاله هم أبطال القصص فى هذا العصر. ولعل ذلك راجع الى انهم يستمدون كتابتهم مما يحيط بهم فى الحياة !

وان عصر القيصر وما كان فيه من مظالم ، وما عقبه من ثورات ، قد فاض على الادب الروسى حتى اكتسب خصوبته وأثمر تلك الثمرة الشهية .

ومؤلف هذه القصة هو احد كتاب الروس القصصيين الحديثين ، فهو فلاديمير جالاكشنوفتش كورولنكو (Vladimir Galaktinovitch Korolenko) ولد فى بولتافا سنة ١٨٥٣ وتوفى عام ١٩٢١ .

واسلوبه هادىء يحيط بالفكرة و يخرجها لك صورة واضحة وان كنت تلمح فى تفكيره روح ألم فلعله من مرارة النفى سنين طويلة قضاها فى سيبريا مضطهداً من حكومة القيصر لما كان يثيره عليها من كتابات .

وقد وضع قصصا كثيرة منها «حفيف الغابة» و «الموسيقى الاعمى» و «حلم مكار» اما قصته «خادم البيعة» فهى من احسنها يريك فيها صورة تعبه من الحياة و يكشف لك عنها فى مختلف أطوارها ، ولكنها رغم هذه المتاعب راضية قانعة ، تؤمل وترتاح الى هذا الامل ينسيها ما يحيط بها فى الحياة من تعب وشقاء...

الشمس تمنح الى الغروب والظلام ينشر سجفه شيئاً فشيئاً فوق القرية بجوار الغابة تظللها أشجار الصنوبر العالية ينساب من بينها جدول صافى النمير فد اصطبغ بحمرة الشفق .

وكان السكون يتمشى مع الظلمة فى انتشارها ، حتى اذا سادت تلك الربوع ، بدت القرية ساكنة صامتة تبعث فى النفس الرهبة ، وتفسح للعقل مجال التفكير . . .

كانت القرية كذلك الا من صوت عربة ، ووقع اقدام خيل العائد اليها ، أو نباح كلب أو هو الريح بنوافذ تلك الدساكر قد انبعثت منها الاضواء الضعيفة من المصابيح الضئيلة وفى وسط القرية فوق تل صغير تقوم البيعة ترتفع قبة أجراسها القديمة عالية الى قبة السماء ويلوح مصباحها عن بعد بين الدراري كواحدة مالت للهجوع

ويسمع لدرج القبة شقشقة خشبه تصر تحت اقدام خادم البيعة العجوز ميكيتش وقد صعد اليها ليدق النواقيس إذ حانت الصلاة ، وهو يجد صعوبة في الصعود إذ ان رجليه لم تعدا لتحملاه بعد اليوم . وقد حملتاه مدى تلك السنين التي تصرمت من حياة شهد على مر حها موت اولاده فاحفاده ثم دفنهم بيديه بعد ان لازموه ولازمهم في أدوار حياتهم . وتركوه ينتظر

وكما أن رجليه لم تعدا لتحملاه . فقد ضعف بصره أيضاً ولم يعد ليساعده على ارتقاب النجم ، ومشاهدة سيف الصبح ينسل من غمد الظلام وشروق الغزالة تنشر خيوطها فوق الغابة حتى يدق النواقيس

إنهم ذهبوا جميعاً ، وهو لا يزال ينتظر امر ربه

وعلى اضواء النجوم المتبعثرة هنا وهناك في القبة اللانهائية حدق بعينه الذابلتين الى ماوراء البيعة

هناك مقبرة القرية تقوم عليها الصلبان تدفع عنها شر الارواح الخبيثة ، وحمل النسيم الى ميكيتش عطر الزهور فبعث في نفسه شعورا ممزوجا بالحزن لج به في يم الذكريات وأسلمه الى خيط من الحياة لا تبين شواطئه

وانبعث من صدره أسئلة غامضة الجواب .

هل سأعيش عاما آخر فأعود سيرتي الأولى مدى أيام أصعد في هذا الدرج الى تلك القبة لأردد في جوف الليل وفي مطلع الفجر دقات نواقيسي ؟ أم سأنزوي بعد اليوم في جوف قبر من تلك القبور التي يقع عليها نظري الضعيف ؟

ان علم الغد عند ربي ، وانى لمنتظر امره ، شاكر له نعمة الحياة التي لم يرد استردادها حتى اليوم مني

ونظر إلى السماء الزاهية بنجومها ثم رسم علامة الصليب ، وقال لك الكون ، يامالك الكون . . .

* * *

وانه لكذلك إذ يردد بهو البيعة نداء عجوز متقطع الصوت يبحث عن ميكيتش فينبهه ان قد أذن الوقت بدق الناقوس

فيجيبه ميكيتش بصوته المتهدج من القبة ان ينتظر قليلا فهو بالوقت أدرى ...

أليست تلك حاله فى مدى حياته البعيدة ، يرى بعينيه من تلك القبة جحافل الظلام تغشى الغابة ، و يرقب النجم فى طلعته وأفوله ، و ينظر الى الفجر يبدد الظلام و يتعقب فلوله ثم ينشر النور . . ؟ أليس جديرا بعد ذلك ان تهبه الطبيعة من سرها مالا يستعين معه بساعة . او يحوجه الى تنبيه لواجبه ؟

* * *

عاد الى الماضى يقلب صوره فعادت به الذاكرة الى المرة الاولى لصعوده الى هذه القبة وكان يصحبة ابيه ، و تذكر ملامحه التى ارتسمت عليها حركات الايام ورحلاتها كيف كانت ؟

كان فى صباه ذهبى الشعر تلعب بخصلاته النسمات ، ذا عينين واسعتين حادتى النظرة ذكر ذلك الامس البعيد فكان قريباً اليه اليوم . . .

من تلك القبة نظر النظرة الاولى من أعلى الفضاء على الغابة الواسعة الخضراء فرأى كانما العالم تحت نظرته وكانت تلك المنازل وجموع الناس تتراءى له أشباحا تصغر أمام عينيه ، وقد امتد أمامهما الافق بعيداً

ذكر كل ذلك فابتسم وقال : ولكنها الآن كما كانت بالامس يكاد يكون كل شىء على حاله انها الحياة لا يدرك الانسان مداها ولا يعرف سرها فى شبابه ، حتى اذا كان قاب قوسين أو أدنى من القبر تجلت حقيقتها له من يوم أن دب على الارض الى يوم تكاد فيه تبتلعه

ولكن أهذه كلها قبور يا إلهى ؟

لك الكون يا مالك الكون . . .

ورأى الارض كانما فغرت فاها تريد أن تبتلعه ، الارض التى ستضمه فى جوفها كما ضمت من قبله أجداده وآباءه ثم أولاده وأحفاده . وتركوه ينتظر

هاهو ينتظر . . .

وهاهو الصبح يبدو من غلالة الفجر وقد حان وقت الصلاة ، فوقف العجوز خالعاً (عمارته) مشيرا بيده علامة الصليب ثم أمسك حبال الناقوس وشدها فرددت الاجواء صدى ثلاث دقات انتشر الناس مع انتشار الرنين بعدها ، وهبوا للصلاة

ابتلعت الاجواء رنين النواقيس ، وبدأ القداس وكان على ميكيتش أن ينزل فيقف بالباب ويحضر الصلاة ليؤديها ، وليسمع الاغنيات المقدسة ترتل بين الصلوات

ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وقد صعب عليه أن ينزل من هذا الدرج مرة أخرى. ثم بعد ذلك يصعد فيه، ففضل البقاء فى القبة مرتع أحلامه ومدرج شبابه الى تلك الشيخوخة

وبجوار نافذة فيها جلس ينظر الى النور يلثم العالم ، ويستمع للاناشيد تحمل اليه صداها النسائم ، فحملته سنة من النوم الى عالم آخر . . . . الى عالم الاحلام

لقد كان المصباح الذابل الضوء لا يزال ينبض فى سقف القبة ، وصوت المرتلين ينبعث من قلب البيعة كأنه الصدى تؤوبه الاجواء ، وهذه النواقيس كانت ترن رنينا ضعيفا كدقة الساعة كلما هزت الرياح حبالها فلامستها

وميكيتش العجوز فى عالم الاحلام ماذا يرى ؟

انهم يترنمون بالأناشيد الدينية ، وهو بينهم ولكن من هذا الذى يبدأ الصلاة ؟ أنه الاب (توام) وقد مات منذ أمد بعيد ، وهاهى رؤوس المصلين رجالا ونساء تلعب بها طقوس الصلاة فهى تميل طورا وطوراً تنثنى كأنها السنبلة مرت بها الريح وهاهم يرسمون علامة الصليب

لقد كان أكثر الجميع قوم قذفت بهم الحياة الى بطن الثرى ، ولكن ميكيتش يراهم يصلون ويرى نفسه بينهم ، ويرى أباه بوجهه العابس ويحس قساوة قلبه كما كان فى حياته وها أخوه أيضاً بين المصلين . أما ميكيتش فيرى نفسه تفيض أملا بالسعادة التى طالما حلم بها ولكن أين هي ؟

إنه لا يزال تعباً ، وهاهو يلمح نفسه بين تلك السنين من حياته صاعداً الدرج، هابطه وإنه ليتأوه وتلك حال من حملتهم الحياة عبأها الثقيل فى الشباب ، حتى اذا وقفوا على حدود الابدية دلت ملامحهم على ما اجتازوا من عقبات، ويرى غبار الأيام معفراً وجوههم ومع نساء القرية . ماذا يرى . . . إنه يرى رفيقة حياته التى قضت نحبها منذ أمد حانية رأسها هادئة . ولقد كانت مخلصة له فهو يراها ملاكا خليقاً بسكنى السماء . كانت مخلصة تعذبت وإياه وكان عذابا مراً فى فقر بعيد الغور ولكنها كانت جد مخلصة

لقد كانا يبحثان عن السعادة

قضى ماقاسته تلك المرأة على جمالها ، وأطفأ نور عينها فقدت ولدها الوحيد بعد أن ألقت به جوارى الايام فى بحر من الدنايا كدر بهيم

ورأى الغنى - و ياشدما كان يكره الاغنياء - يصلى طالبا المغفرة وقد أحنى رأسه فى خشوع وخزى

رأى ميكتيش كل ذلك ، رأى الحياة . . . ثم فتح عينيه فرآى جدران القبة تحوطه فاحنى رأسه و بللت بالدموع وجهه المجعد

ومزق ستار سكونه نداء من داخل البيعة يقول :

«هل نمت فى القبة يا ميكتيش ؟ »

فرفع رأسه إلى السماء قائلا : « هل كنت نائماً يارباه ؟ إنى لم أذقه قبل الآن ! »

وسرعان ما أمسك حبال الأجراس كسابق عادته . وكان اليوم عيد قيامة السيد المسيح فرأى من نافذة القبة الأعلام تغازلها النسائم فوق سطوح المنازل والجموع تخرج من باب البيعة ترتل الأناشيد وهي تقول « المسيح قام من بين الأموات » فاهتز قلب ذلك العجوز وبدأ يشق عنان السماء بدقات نواقيسه ، وقد زاده ما رأى عزماً ، وكأنه يرى فى تلك المشاهد شيئاً غير مألوف وان ذلك اليوم ليس كسابقاته من الأيام ، وكأنما الأجراس قد اتصلت بقلبه فهى ترن رنيناً مشجياً لم يعهده

و بين رنين الأجراس و هتاف القوم ، نسى الرجل حياته التعيسة ، و عزب عنه أنه ذلك الذى نسيه العالم بين جدران البيعة ، وفوق درج قبتها القديمة وأجراسها الصلبة القلب ، فكأنه

. . . . كسفينة منبوذة فى الـ ـ شط غاب وراءها ماضيها(١)

وحامت حوله الخيالات كأطيار جازعة فى سماء حياته المكفهرة

رأى أهله و والدته الذين رحلوا من الحياة ينادونه وقد أحاطوا به يحدثونه عن شىء . ، فهو جذل ، وهو ينتظر

وعم كانوا يحدثونه ؟ عن السعادة التي حلم بها طيلة حياته وما كان له أن يراها ولو خلد الأمد السرمدى

---

(١) هذا البيت من قصيدة للشاعر الكبير الاستاذ ايليا ابوماضى

سعادة تنتظره بعد ما كان ينتظرها ! !

وجذب الحبال فرنت الأجراس

ووقف القوم يتحدثون عن جمال الرنين وهم يذكرون أنهم لم يسمعوا قبل الآن من ميكيتش دقات لنواقيسه بلغت من الجمال ما تفتحت له أبواب السماء، مثلما سمعوا اليوم وانهم لكذلك وإذا بالنواقيس الكبيرة ترن رنيناً مزعجاً بينما كانت الأجراس الصغيرة ترن بما كان يخالج قلب الرجل

وسقط ميكتيش بعد أن بللت وجهه الشاحب آخر دمعة من عينه

وارتفعت مع صدى الأجراس إلى السماء روح العجوز المسكين.

ثم ساد القبة السكون. (ح . ك . ص)

ياسلام ! عشرة جنيه ثمن الصورة !

ليه هى بتاخذكام وقة زيت